عود على بدء

بين الغـــرب والشرق

للدكتور اسماعيل أحمد أدهم

— ٣ —

« قلنا في المقال الأول في الرد على مزاعم مناظرنا الفاضل الأستاذ فيلكس فارس إن لكل أمة في العالم روحها التي تحتضن تراثها التقليدي ، وعن طريق تحليل تراث مصر التقليدي انتهينا إلى أنها فرعونية آخذة بأسباب العربية لتجاري فن الحياة في ذلك العصر الذي طغت فيه العربية على كل شيء وكانت مركزاً للجذب الاجتماعي في الشرق الأدنى .

وفي المقال الثاني بينا الفروق الأساسية بين ما سميناه ذهنية للغرب وطابعاً للشرق ، وقلنا إن نزعة الذهن الغربي يقينية ونزعة العقلية الشرقية غيبية، واستدللنا على هذه الحقيقة من حقائق التاريخ، واستشهدنا بكلام للأديب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم . ولهذا قلنا إنه من الصعوبة بمكان أن تأخذ مصر الثقافة الغربية وهي محتفظة بثقافتها التقليدية وأساسها الايمان بالغيب . وقد قرأ قراء « الرسالة » منبر الأدب الحي في الشرق العربي رد مناظرنا الفاضل على ما قلناه في عددي الرسالة ٢٦٣، ٢٦٤، لهذا اضطررنا أن نعيد الكرة من جديد لدحض ما أثاره المناظر الفاضل من اعتراضات . ولن نتقيد في ردنا على المناظر بما جاء في كلامه ، وإنما سنرجع لكتاب رسالة الغفران إلى الشرق العربي فهو إنجيل الناظر في الايمان بثقافة الشرق »

يقول الأديب النابغة فيلكس فارس :

« الثقافة راسخة في الفطرة ، والفطرة في الفرد كما هي في الأمم ميزة خاصة في الذوق واختصاص في فهم الحياة والتمتع بها ، فاذا كان العقل رائداً لبلوغ الحاجة فليست الفطرة إلا القوة المتمثلة في الانسان بتلك الحاجة بعد بلوغه إياها »

هذا ... ونحن نفرق بين الثقافة والفطرة، بين تراث الشعب الذي يخرج به من ماضيه انسلالا على مدى الدهور والأعوام ، وبين الفطرة من حيث هي روح الأمة التي تحتضن تراثها. فتراث مصر الفرعونية التي أسلمته لمصر الاسلامية فاختلطت نتيجةً لذلك الفرعونية والعربية فكان من ذلك ما سميناه لمصر من ثقافة تقليدية شيء والروح المصرية شيء آخر . إلا أن هذا لا يمنع من أن ترسخ الثقافة التقليدية وتصبح وكأنها من صميم فطرة الشعب. وانسلاخ الشعب عن ثقافته التقليدية ، وإن كان لها رجة في صميم الفطرة والروح إلا أنها لا تعني انسلاخ الشعب عن روحه وفطرته. وما ثقافة الشعب وتراثه إلا أثر وقوع الفطرة والروح تحت تأثير ظروف ومؤثرات تجد طريقها للمحيط الاجتماعي والبيئة الطبيعية للشعب . بيان ذلك أن الروح المصرية تحتفظ بذاتيتها منصبة في قوالب شتى ، فهي في قالب في العصر الفرعوني، وهي في قالب في العصر الاسلامي ، وجماع هذه القوالب المختلفة يكافئ الحالات المتباينة التي يتضمنها المحيط اجتماعياً وطبيعياً . وإنكار هذا معناه أن الروح المصرية تغيرت من العصر الفرعوني إلى صورة أخرى في العصر الاسلامي . فما الذي يمنع أن تتغير إلى صورة أخرى في العصر الحديث ؟ ولعمري هذا لا يتفق مع ما يعرف من قواعد الاجتماع وعلم تكون الشعوب ، لأن روح الشعب شيء مجرد ، يكتسب عن طريق وقوعه تحت تأثير الفواعل الاجتماعية والطبيعية خصائص متباينة شكلا وإن كانت متفقة روحاً

من هذا أرى أنه من الضروري التفرقة بين روح الأمة من جهة، وثقافتها وتراثها الشعبي من جهة أخرى، وإذاً أيكون من الممكن لمصر أن تتجرد عن ثقافتها التقليدية ، وتستبدل مثلا بدينها ديناً آخر وبلغتها لغة أخرى كما حدث ذلك في عهد الفتح العربي ومع ذلك تحتفظ مصر بروحها وفطرتها ، لأن ما ستأخذه الروح من القوالب سيكون عن طريق الوقوع تحت تأثير عوامل ومؤثرات وجدت طريقها للمحيط الاجتماعي والطبيعي ، ويكون بذلك صور متباينة تأخذها فطرة الشعب ، أو بمعنى آخر قوالب شتى ، غير أن قانون المادة يدخل لاستحداث المماثلة في عقل ومشاعر الشعب فيكون من ذلك تماثل الثقافة التقليدية الجديدة في سريرة كل فرد من أبناء الشعب

على هذا الوجه فقط يمكن تعليل تفسير الغالب العربي للروح المصرية والذي تكون نتيجة لوقوع الروح المصرية تحت تأثير الثقافة العربية . وعلى نفس الوجه يمكن تفسير وجه قيام الثقافة الغربية في مصر مع احتفاظ مصر بروحها وفطرتها .

وأظن أن هذا الايضاح كاف يقطع السبيل على كل اعتراض يمكن توجيهه من أن الثقافة الغربية لا تتفق والروح المصرية .

وكل الخلاف على ما يتبين أخيراً راجع إلى عدم التفرق بين الثقافة التقليدية والروح ، فعند ما يقوم أنصار الثقافة الغربية بدعوة إلى مدنية الغرب يثور عليهم أنصار الثقافة العربية قائلين إن معنى ذلك ضياع الروح المصرية والقومية ، مع أن الروح شيء ثابت والثقافة شيء عرضي يتقوم بالروح وفطرة الشعب .

والآن لنتمش مع كلام المناظر فى رده ولنعقب عليه بما يكفى لاظهار زيفه وبيان وجه بطلانه .

١ — قلنا فى صدر كلامنا فى المقال الأول فى الرد على مزاعم مناظرنا الفاضل كلمة عن هابل آدم بك الفيلسوف الاجتماعى المعروف . والكلام واضح بين في أننا بحكم كوننا فى الحياة يجب أن نفكر فيها وحدها وأن نعمل لأجلها واقامتها على أساس انسانى بدون أن نجعل للغيب سبيلا للتدخل فيها . وهذه الكلمة تتجلى فى صدر الحديث النبوى : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » . ومع ذلك رأى المناظر فيها غموضاً وحاول أن يتعسف بتأويل الكلام إلى أن معناه إنكار الآخرة . وقال وأين عجز الحديث: « واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »

يا صديقى ليس هكذا يكون الكلام !

قد يكون بدؤنا فى طريق الله ونهايتنا فى طريق الله ، لكن « الوسط مدرجة بيوتنا ومصانعنا وحوانيتنا، وبكلمة أخرى طريق بعضنا إلى البعض » يجب أن يكون مبدؤها ومردها الأول والأخير عندنا ، حيث يقوم العقل الانسانى بتنظيم الحياة البشرية

هذا هو حقيقة كلام هابل آدم فى ضوء تحليل مدلول عبارته التى استهل بها كتابه الخالد « مصطفى كمال للترك كتابى » الذى ترجم لأكثر اللغات الحية ونقل ملخصاً إلى العربية بقلم صديقنا الأستاذ اسماعيل مظهر عن ترجمته الانجليزية .

٢ — قلنا إن موضوع الخلاف بين ثقافة الغرب وثقافة الشرق يرجع إلى كون الثقافة الشرقية وقفت عند حدود الدرجة الثانية فى سلم الارتقاء الفعلى بعكس الثقافة الغربية فانها اجتازت هذه الدرجة إلى التى بعدها . ولا أدل على ذلك من بعض المراجعة لثقافة كل من الشرق والغرب فى ضوء قانون الدرجات الثلاث الذى كشف عنه أوغست كونت

يقول أوغست كونت :

(إن كل فكراتنا الأولية ومدركاتنا وكل فروع معرفتنا لا بد من أن تمر على التوالى بثلاث حالات مختلفة : الأولى الحالة الخرافية وهى حالة تصورية تخيلية ، والثانية الحالة التيبية وهي حال تجرد، والثالثة الحالة اليقينية وهي حالة تيقن)

ومع ذلك يجادلنا المناظر فليكس فارس مرجحاً الحالة التيبية وهذا قلب لقانون الدرجات الثلاث !

٣ — يرى المناظر متابعة لاعتقاده برجحان الحالة التيبية أن ميزة الشرق هى فى الحالة التيبية وفى إيمانه بالتيبيات . وهذا القول لو صدر من شخص ليس فى مكانة مناظرنا الأستاذ فليكس فارس — وهو على علم واسع وفضل راجح — لما اهتممنا له. ولكن صدوره من مناظرنا يجعله حدث الأحداث فى عصرنا الراهن

وإذا كان وقوف الشرق عند الدرجة الثانية فى سلم الارتقاء العقلى سبباً للاعتقاد بتفوق هذه الدرجة على ما بعدها ، فماذا يكون موقف مناظرنا إزاء أحد الزنوج أو متوحش افريقيا إن وقف يرجح الحالة الهمجية والحالة الخرافية اعتقادا منه بتفوقها على ما فوقها ، وقال لمناظرنا ما يقوله هو لنا ؟ إذن ماذا يكون منه الجواب ؟

٤ — إن قول المناظر برجحان الحالة التيبية على الحالة اليقينية وإن كانت ظاهرة البطلان إلا أن هذا البطلان لا يمنعنا عن مناقشتها حتى لا يظن مناظرنا أن كلامه حق يعلو على التجريح والنقد

يقول العالم الياباني « موريكاتو إيناجاكي » إن فى كل عنصر بشرى استعدادا لأن يظن في نفسه الكمال . ويثبت هذا العالم هذه الحقيقة من حقائق علم النفس والانسان . وفى ضوء هذا القول نفهم اعتقاد مناظرنا برجحان ثقافة الشرق التيبية ، ولكن ما هى الأسباب العلمية والفلسفية التى يبرر بها المناظر إيمانه بتفوق ثقافة الشرق التيبية ؟

بحثت كثيراً في كلام المناظر وفتشت بين السطور عن الأسباب العلمية لايمانه بتفوق ثقافة الشرق التيبية ، ولكن بلا جدوى . فرجعت لكتابه « رسالة المنبر إلى الشرق العربى » فلم أخرج بغير « قانون الرجعى » سبباً فى تفوق ثقافة الشرق التيبية !

يرى المناظر أن العلم الحديث أكد وجود قوة مستترة فى الانسان أسماها العقل الباطن، وهى مستودع الفطرة والانطباعات السابقة، وهى نفسها تسير الآن متلبسة بمظهر الاختيار. وما العقل الباطن كما دلت التجارب إلا الحوافز التى وجدت فى الأجداد ونمت على اتجاه مقدور أيضاً زمن الطفولة . وهذه الحوافز تكمن فيها فطرة الأمم لأنها أداة شعورها بالحياة. وما دام الأمر كذلك فهو يرى أن سعادة المجتمع العربى فى ملاءمته لما فطر عليه هى الغيبيات لأنها استلهام للروح العليا

كلام كما تراه يخترمه التناقض ومجانبة الحقائق . ومع ذلك فلننظر فيه

من المعلوم أن الانسان بتكوينه الطبيعى يستجيب للمؤثرات الداخلية والخارجية استجابة ذاتية Spontaneous response وهذه الاستجابة مرتبطة فيه بأنصاف الكرات المخية التى هى أعضاء رد الفعل فى الانسان . وترتبط بهذه الأنصاف الكروية المخية الوراثة والعقل الباطن . بيان ذلك أننا لو أتينا بكلب ووضعنا أمامه قطعة من الحلوى فان لعاب الكلب يسيل . هذه الظاهرة تحدث بتأثر ذاتى فى الكلب ومن غير أن يكون للتجربة يد فى تغييره أو تكوينه ؛ ومن هنا تعتبر فعلاً عكسياً أصيلاً . وهذه الأفعال العكسية الأصيلة هى ما كنا نسميها من قبل بالغرائز . فالغرائز مجموعة من الأفعال العكسية متدغم بعضها فى بعض كما هو الحال فى غريزة بناء الطيور لأعشاشها . غير أن هذا الفعل العكسى الأصيل وإن كان يحدث بقاسر ذاتى فى الأحياء العضوية لا يتغير فان ذلك وقف على الأحياء الدنيا . أما فى الأحياء العليا فى سلم المملكة الحيوانية فان سلوك هذه الحيوانات وإن كان مرتكزاً على استجاباتها بقواسر ذاتية للمؤثرات فانها تستفيد من التجارب، إذ تترك التجارب أثراً بيناً فى سلوكها . والانسان كأحد أصناف المملكة الحيوانية العليا يخضع لنفس هذه السنن . والأفعال العكسية المستفادة من التجارب مؤصلة لأنها مكتسبة يكتسبها الحى من ظروف حياته كنتيجة لما يلابسه من مؤثرات ؛ وهذه الأفعال تختفى وتضمحل إذا ما تغايرت المؤثرات . ولما كانت الأفعال العكسية فى الأصل تحدث بقاسر ذاتى مصحوبة بحركة انفعالية جاز لنا أن نعتبر الأفعال العكسية المؤصلة — وهى المستفادة من التجارب — كنمو ارتفاقى فى الأفعال العكسية الأصيلة .

ولما كانت هذه الأفعال تقوى وتضمحل وتضعف وتتغاير باضمحلال المؤثرات وتغايرها ، فان مراكزها فى الكرات النصفية المخية تكون قابلة لدرجة قليلة أو كبيرة لأمكان تكون الانعكاسات المؤصلة حيث تعتمد فى قوتها على التكرار الاصطحابى كما أن ضعف أواصر التلازم أو تقطعها يؤدى إلى ضعف الانعكاس المؤصل أو اضمحلاله . غير أنه يعود بصورة أيسر لأنه يكون قد ترك أثراً فى الحى من حالته الأولى الارتفاقية . وهذه الحقائق بإثباتها ديناميكية خاصة للنفس وساحة لا شعورية تبين إلى أى حد قد جانب المناظر فى كلامه حقائق العلم. لأن الحوافز التى بالأحياء نتيجة للارتباط الارتفاقى بين الأفعال العكسية الأصيلة والمؤصلة وليست نتيجة للوراثة. وهذا لا يمنع أن الانسان يولد وفى تضاعيف تلافيف مخه، وفى ثنايا أنصاف كراته المخية، وفى لحائها، وفى مراكز أعصابه ميول وكفايات امكان لبعض الأفعال المؤصلة . والانسان بخروجه لعالم الحياة يكون جهازه العصبى فى طور نمو وتكوين إذ تسيطر عليه الأفعال العكسية سيطرة مطلقة ، وهذه الأفعال مجردة . . . ويكون للمؤثرات التى تلابس الانسان أثراً فى أن تحدث استجابات تكون مقدمة لفعل عكسى مؤصل . فاذن العلاقة بين ما هو كائن فى النفس عن طريق الوراثة لا تتعدى الامكان المحض . وهو تحت تأثير المؤثرات يظهر مصحوباً به . فالاعتقاد بوجود أساس وراثى يرثه الانسان ويتركب عليه مكتسباته لا يتعدى هذه الحقيقة . وهو لا يثبت دعوى أن اللاواعية أو العقل الباطن يحتوى على الحوافز المتوارثة عن الأجداد

فاذا لاحظنا هذا كله وجدنا أن للمحيط الاجتماعى وما يعرض له من العوامل والمؤثرات الأثر الأكبر فى تكوين الانسان على غرار معين ... وإذاً يكون اتجاه المناظر إلى الوراثة والحوافز المتوارثة عن الأجداد — وهى حالات إمكان فى النفس — خطأ من الناحية العلمية ، ويكون بالتبعية اعتقاده فى سلامة وسعادة المجتمع لما فطر عليه من الحوافز المتوارثة خطأ . والصحيح أن يقال إن الانسان من حيث يولد وهو طفل وأفعاله العكسية المؤصلة هى التى تستحكم فى جهازه العصبى، وبتعبير أدق غرائزه ، يكون مطواعاً للمؤثرات التى يحتويها محيطه الطبيعى والاجتماعى ، ويخرج مصبوباً فى قالب معين يكافىء الحالات التى أحاطته . ونظراً لأن المحيط الطبيعى والاجتماعى عادة واحد فى الحالات الاعتيادية

فان المؤثرات تكون واحدة، ومن هنا يخرج الناس فى قبيل معين وجيل معين مصبوبين فى قالب معين . وقانون العادة يتدخل لاحداث المماثلة فى القالب المصبوب فيه القبيل حتى ينتهى ذلك .

أما فى الحالات التى تكون فيها المؤثرات فى المحيط الاجتماعى متباينة ، فان القبيل يخرج فى قوالب شتى جاءها يكافىء الحالات التى يتضمنها المحيط الاجتماعى؛ وهذا ما هو حادث اليوم فى مصر.

فان أهل المدن من الطبقة المتوسطة وفوق المتوسطة يعيشون على غرار غربى، لأن العوامل التى فى محيطهم الاجتماعى متأثرة بالروح الأوربية ، بعكس أهل الريف الذين يعيشون على غرار شرق . وهذا الانقسام فى المجتمع المصرى ملحوظ للنظر .

وإذن تكون نقطة الخطأ فى كلام المناظر ، بل الخطأ الأساسى هو إغفاله للمؤثرات الطارئة التى تدخل فى المحيط الاجتماعى، وتؤثر فى المجموع الانسانى ، وتصبهم فى قوالب جديدة تكافىء المحيط الاجتماعى فى الصورة الجديدة التى أخذها بالمؤثرات التى طرأت عليه . وهذه الحقيقة تتبين من نظرة سريعة فى كتاب « رسالة المنبر إلى الشرق العربى » .

ولقد كشفنا عن هذه الحقيقة فى النقد الذى كتبناه فى مجلة « العصبة الأندلسية » فى عددى فبراير ومارس سنة ١٩٣٨ . لكتابه ، وهى تبين أن المناظر يمضى فى كلامه مغفلاً شأن العوامل والمؤثرات التى تجد طريقها إلى المحيط الاجتماعى للشرق العربى . ومن هنا ترى أن الشرق العربى شاء أو لم يشأ مفكروه سيمضى فى سلسلة من التغايرات حتى ينتهى إلى أن يحوز المكافأة للمؤثرات التى دخلت محيطه .

« اسكندرية » اسماعيل احمد أدهم

أطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من مكتبة الوفد، شارع الفلكى (باب اللوق)
ومن المكتبات العربية الشهيرة

كتاب المبشرين
الطاعن فى عربية القرآن
أسلم مصرى أم مبشر بروتستنتى؟
لأستاذ جليل

— ١ —

افترحت وزارة المعارف المصرية ذاك المقترح فى تيسير (القواعد) ، وأعلن أولئك الفضلاء (الميسرون) منهجهم ، فقال قائلون من العلماء لما رأوه : إن هذا التيسير تعسير ، وإنما تسهيل القوم تصعيب . وتجادل الفريقان فى الجرائد والمجلات والكراريس . و (كتاب العربية) يقول : «فأما الزبدُ فيذهب جُفاءً وأما ما ينفع الناسَ فيمكث فى الأرض »

والعربية هى كسائر اللغات وليست بأصعبهن ، وإنْ نحوها — وإن لطفت دقائقه وجلت حقائقه — إلا كنحوهن

وليست المشكلة فى صعوبة اللغة أو سهولتها ولا فى (قاعدتها) وإنما هى فى (العلم والكتاب) فهما اللذان يسهلان ويصعبان ، وهما اللذان يهديان ويضلان ، وهما اللذان يحبّبان إلى الفتى لغته أو يكرّهان . فالمعضلة كل المعضلة هى فى المعلم وعلمه وتعليمه وكتاب كل صف من الصفوف وتبويبه وترتيبه وتبيينه . ولو غيرت الوزارة هذين لفرطست

ومن ظن أو أيقن أن تقريب العربية أو تسهيلها هو فى تهديم قواعد فيها — فهو موسوس يهذي ، أو موسوس يلغو . وليست اللغة العربية ملك كاتب أو كويتب ، أو أديب أو أديّب ، أو عالم أو عويلم ، حتى يتصرف فيها تصرُّف المتملكين ، كلا ، ثم كلا . إنها تراث قرون وملك أمم ، فأين يذهب بكم يا لاعبون ؟

واللغات فى المشارق والمغارب إنما يقدم فيها ويؤخر ، ويبقى ويطول ، وينقص أو يزيد ، ويحيا أو يبيد — فانه لا يفعل ذلك إلا الاحتياج الطبيعى أو الانتخاب الطبيعى (La sélection naturelle) وإلا الدهر ، لا اللاعب العابث ولا الجاهل المر . ولقد كان التبديل